الحكمة الصينيـــــــــة

بقلم الدكتور على العنانى

لعل حضرات القراء ، يذكرون أنا كتبنا مقالا في الجزء التاسع من السنة الاولى ، تناولنا فيه البحث عن الفلسفة الصينية ، وكنا كتبنا عنها منذ خمس سنين أيضاً ، وقد تقدنا في الجزء التاسع ، خلو الجامعة المصرية من دراسة هذا الضرب من الفلسفة ونحوه كالفلسفة الهندية وغيرها .

وأهبنا بأساتذة الجامعة المصرية وكبار العلماء ، الى دراسة هذه البحوث العريقة ، فجاء الاستاذ الدكتور على العنانى ، الفيلسوف المحقق ، محققا ظننا هذه الرغبة ، فتفضل ببحث المعتم الذي جاء مركزا ومؤيدا لما كتبناه من قبل .

والدكتور العنانى غنى عن التعريف ، عالم ذو باع واسع الاطلاع ، وفيلسوف عميق دقيق الملاحظة كما خلق للفلسفة أو خلقت هي له . وهو بعيد الصيت في الاوساط الاجتماعية ، رفيع المكانة في جميع الهيئات العلمية .

وها نحن اولاء نقدم بحثه لقراء « المعرفة » مقدرين . المحرر

١ — الأساطير الصينية

ابتدأ الصينيون حياتهم العقلية في حدود الطبيعة والنظر إلى أسرار الكون العام ، فوصلوا بذلك إلى تكوين معتقدات دينية أسطورية ووثنية قديمة ، تحورت فيما بعد إلى حكمة ، وإلى تعاليم اجتماعية ، صارت لهم دينا جديدا امتزج بعد ردح من الزمن بالديانة البوذية ، واستمر هذا المزيج عند الصينيين حتى الآن .

ارتكزت الديانة الصينية الأولى على عقيدة التوحيد ، ثم تطورت إلى التعداد : وتقديس أرواح الآباء السابقين ؛ وإذا نحن أجملنا القول في ذلك ، فأننا نرى الديانة الأسطورية الأولى عند الصينيين ، تقدس قوة سامية عرفت باسم (شانغ ـ تى) ومعناه العلى العظيم : أو (تى ـ آن) ومدلوله السماء ، وليس المراد بهذه الكلمة القبة السماوية ، بل المراد بها القوة الالهية ، كما ترى ذلك الاطلاق لهذه الكلمة في أكثر اللغات الأوربية الآن .

ويوصف هـذا الآله بأنه مالك الملك كله ، يسمع ويبصر كل شيء ، ويثيب على الخير ، ويعاقب على الشر بما كسبت يد الانسان .

بجوار هذا الاله مالت الوثنية الصينيـة إلى الأذعان بوجود قوى روحيـة في الظواهر الطبيعية ، والايمان بوجود أرواح مجردة كانت أرواح الآباء السابقين ، وكثيراً ما كان تقديس هذه الأرواح ، وعبادة تلك القوى أكثر مما كان للاله الاكبر ، واحترامها أعظم من احترامه ، ولقد تزايد ذلك حتى طغى على مكانته بجعله رمزا للناموس الطبيعي فحسب ، بلا عبادة خاصة به وبلا تقديس .

وأثر هذه العقائد الأسطورية فى النظام الاجتماعى عند الصينيين يرجع إلى العناية الكبرى بالفضيلة الأولى عندهم : وهى تقديس القوانين السماوية (الالهية) بأداء أنواع العبادات على اختلاف طقوسها المتناسبة ، مع كل إله : والقيام بالواجبات نحو الحاكم والأقارب ، وأساس هذه الواجبات هى المبادىء الاجتماعية الخمسة وهى : علاقات الآباء بالأبناء ، وعلاقة الرجل بالمرأة ، وعلاقة الأخوة الكبار بالصغار ، وعلاقة الأصدقاء ، والخضوع للقوة الحاكمة .

وترى هذه الديانة الأسطورية : أن النفس الانسانية خالدة ، غير أنها لا تتعرض إلى ذكر شىء منها بعد الموت من ثواب وعقاب ، كسياج للفضيلة ، وقوانين الاجتماع .

على هذه المعتقدات الاسطورية القديمة : عند قدماء الصينيين : ارتكز الرجلان العظيمان فى تاريخ الحياة العقلية الصينية وهما : « لاؤتسه » ، و« كونفوشيوس » اللذان نالا فى تاريخ الحكمة الصينية شهرة أفلاطون وأرسطو فى فلسفة اليونان .

٢ ـ لاوتســه :

ولد لاؤتسه فى سنة ٦٠٤ قبل الميلاد ، وروى (سيماذين) المؤرخ الصينى : أن لاؤتسه هذا : كان موظفا فى قلم سجلات (آنشى)، ثم ترك وظيفته ـ مختارا ـ ليتمكن من العزلة والانقطاع عن الناس ، وقد دفعه إلى ذلك ميله إلى الاستمرار فى التفكير العميق المتواصل ، فى فهم الوجود العام ؛ وتركيز حياة الأمة الصينية تركيزا اجتماعيا فاضلا ، على أساس مما يدركه من أسرار الكون العام ، والمبدأ الأول فيه : ولقد برز لاؤتسه فى ذلك ، ووصل إلى غاية بعيدة من النظر الفلسفى : فهو الفيلسوف الصينى الكبير .

عرف لاؤتسه بالنظر الدقيق فى الطبيعة وما وراءها : وفى الاجتماع الانسانى ، على عكس ما كان عليه كونفوشيوس الذى جاء بعده ، فأنه كان فى آرائه الاجتماعية عمليا ، لا يميل فى العموم إلى تدعيم آرائه بالنظار الفلسفى العميق .

يوجد ضمن مؤلفات لاؤتسه التى حفظت من الضياع كتيب صغير عنوانه « تاؤو ـ تى ـ كنج » ومعناه : كتاب تاؤو والفضيلة : فى هذا الكتيب ارجع لاؤتسه كل شىء فى الوجود العام إلى تاؤو ـ على ما سيجىء ـ ، ومعنى هذه الكلمة اللغوى مشترك فى هذه المدلولات الآتية وهى : الطريق ، العنصر ، العقل ، المبدأ ، وقد استعملها هذا الفيلسوف بمعنى « مبدأ » أى مبدأ الوجود وغرضه النهائى ، فتاؤو اسم للقوة العليا المجردة فى ذاتها عن التسمية ، وليس اسما للاله الشخصى المعروف فى عقيدة الأمة .

ماوراء الطبيعة :

قال لاؤتسه : أنا لا أعرف من أى أب تناسل تاؤو ، ويظهر أنه موجود قبل (تى ـ آن) أعنى إله العقيدة الاسطورية الصينية .

تاؤو هو الأول، وعنه نشأ كل شيء، فهو أصل وجود الأرض ، ومنشأ السماء : هو الأول ولا أول ولا آخرة: وليس بمادة ، أبدى لا تغير فيه ؛ وهو فى كل الوجود بدون أى تأثير يقع عليه.

تاؤو، هو قوة لا نعرف لها اسما، فهو مجرد عن الأسماء ، ولكننا نعرفه باسم تاؤو ؛ وكما أنه لا اسم له بذاته ، فهو كذلك ليست له صورة ، ولا يعرف بشكل ؛ لأنه أجل وأسمى من أن يعين ، أو أن يتناوله وصف ، أو يصل إلى حقيقته شرح ؛ ومع ذلك فلنا أن نقول بأن تاؤو هو الساكن الابدى ، المدرك لكل شيء ، هو أصل كل كائن، وجميع الموجودات كانت فيه واحدة، لا تفريق فيها ، فهو عنصرها ، وروحها ، فهو الوجود . وهذا هو مذهب وحدة الوجود الذى ظهر قبل هذا العهد عند براهمة الهند .

نشأة الكون العام :

كان تاؤو مجردا عن الحركة ، ولا شيء سواه يوجد ، بل كان منفردا من الأزل: وقد صدرت عنه قوة، هى تاؤو المحرك والمكون للوجود ؛ وقد نشأ عن تاؤو الأول بفعل تاؤو الثانى : السماء والارض ، وكل ما فيها من الكائنات ؛ فوجد الكون العام بأكمله هو تاؤو الثانى، فهو ناموس الطبيعة ، والمحدث لكل تغير فيها ، ونشأة الوجود العام على هذا النحو ليس معناها الحدوث والخلق من عدم ، بل الوجود بأكمله قديم فى تاؤو الساكن، وقد نشأ وظهر بفعل تاؤو المحرك . وأخذ صوره المختلفة بتأثير هذا الناموس فيه .

الانسان :

يرى تاؤو أن الانسان كجميع الموجودات على اختلافها يتكون من عناصر ثلاثة : واحد منها مذكر ، والثانى مؤنث ، والثالث النفس التى تجمع بين العنصرين الأولين . وفى الانسان بعد ذلك قوة الحياة أو الروح الخالدة التى بعد مغادرتها الجسد ، يصح اتصالها بأفراد الناس ظاهرة لهم ، وهى تنفع ولا تضر .

الفضيلة:

كما أن تاؤو أصل كل شيء فهو أصل الفضيلة أيضا : وهو الصورة الفاضلة التى ينحو الانسان نحوها فى كل عمله ، فيجب على الانسان أن يتجرد عن الانانية ، ويعمل للغير بدون من وبدون سيادة، كما يمنح تاؤو الخير دون أن ينظر إلى أنه صاحب الخير ومانحه ، دون أن يدعى بأنه السيد الاكبر لذلك ، وغرض الانسان الأسمى فى الحياة إنما هو أن يتحد مع تاؤو. بأن يتجرد عن كل الشهوات . لا يرغب فى مال، ولا فى شرف أو جاه، والبلاء الكبير فى طلب الجاه والشرف .

هذا وسنتحدث للقارىء فى المقال الآتى عن الفيلسوف الثانى وهو : (كونفوشيوس) وعن تعاليمه ؛ وموعدنا بذلك العدد الآتى.

على العنانى